العالم الاديب عبد الملك بن حبيب

حازم عبد الله خضر

علم بارز من أعلام الثقافة في الأندلس ،تحدثت عنه عشرات من المصادر الأندلسية والمشرقية وأشادت بفضله في مجالات عديدة من الوان الثقافة العربية الاسلامية .

وقد سبق سعيد أعراب إلى تناول جانب من جوانب ثقافة عبد الملك وهو الجانب التعليمي في رسالة كتبها عبد الملك إلى معلم ولده ناقش هذه الرسالة وعدها أول نص تعليمي أندلسي ،واستنبط ملاحظات وتوجيهات عديدة في التربية والتعليم ونشر ذلك في مجلة الثقافة المغربيه، ولخصت الملاحظات التي استخلصها وناقشت بعض وجهات نظره فيها.

وكتب الدكتور محسن جمال الدين مقالاً في عبد الملك بن حبيب أكد على الجانب الادبي والشعر بصورة خاصة بعد التعريف بأهم الجوانب الاخرى مختصراً ونشره في مجلة الرسالة الاسلامية التي يصدرها ديوان الأوقاف ببغداد في عدد شباط وآذار سنة ١٩٧٤ .

ومع أن الجهدين قد تناولا نواحي معينة من ثقافة عبد الملك فإني قد أفدت منهما واستشهدت ببعض وجهات نظرهما وناقشت الاخرى في مواضع عديدة يجدها القارىء الكريم أثناء قراءته للبحث .

اسمه ونسبه :

(عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن جاهمة بن عباس بن مرادس السلمي يكنى أبا مروان) (١) ويؤكد اليعمري هذا النسب أولاً ولكنه يورد رواية تجعل علماً آخر بين حبيب وسليمان باعتباره جد عبد الملك فيقول: « ... ونقل من خط الحاكم المستنصر بالله بأنه عبد الملك بن حبيب بن ربيع ابن سليمان ... » (٢) ويؤيد اليحصبي ذكر هذا الاسم .

ونلاحظ اختلافاً طفيفاً أيضاً في رسم أحد الأعلام عند ياقوت مع أنه يذكر النسب كاملاً حين يقول : « عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون ابن جلهمة بن عباس بن مرداس السلمي يكنى أبا مروان »(٣) ويبدو أن هذا تصحيف كثيراً ما يقع في تراجم الأشخاص .

ويقف الحميدي في ذكر نسب عبد الملك عند هارون ويضيف اليه بأنه من موالي سليم فيقول : «عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون أبو مروان السلمي من موالي سليم » (٤).

أما الضبي فينفرد باضافة المسيحية فيقول :(عبد الملك بن حبيب بن سليمان ابن هارون أبو مروان السلمي من موالي سليم المسيحية) (٣) .وذلك غير مستبعد للاختلاط الحاصل في الاندلس ويرد نسب عبد الملك مختصراً في عدد من المصادر بهذا الشكل (عبد الملك بن حبيب السلمي) (٤) .ويطرد نسبة عبد الملك على هذا النحو بين التفصيل والاختصار أو الاختلاف الطفيف في لفظ أحد أفراد النسب في جميع المصادر التي ترجمت له والمراجع التي تحدثت

(١) تاريخ علماء الا ندلس / ابن الفرضي ص ٢٦٩ ، وتهذيب التهذيب للعسقلاني جـ آ ص٣٩

(٢) الديباج المذهب ابن فرحون ص ١٥٤ وترتيب المدارك جـ ٢ ص ٣١ .

(٣) معجم البلدان جـ ١ ص ٣٤٤ ، وبغية الوفاة للسيوطي ص ٣١٢ .

(٤) جذوة المقتبس ص ٢٦٣ وتاريخ علماء الاندلس ص ٢٦٩ وغيرهما .

(٥) بغية الملتمس ص ٣٦٤ .

(٦) طبقات النحويين للزبيدي ص ٢٨٢ والمغرب في حلى المغرب جـ ٢ ص ٩٦. وميزان الاعتدال للذهبي جـ ٢ ص ٦٥٢ .

عن ثقافته وعلمه .

مولده وحياته :

على الرغم من أننا نجد عدداً كبيراً من المؤرخين وأصحاب التراجم قد تعرضوا للكلام على عبد الملك بن حبيب ، فإن أكثرهم قد تعرض لسنة وفاته بالدرجة الاولى وكانت لهم آراء متعددة في تحديدها ، فقسم منهم يجعل الوفاة في رمضان من سنة ٢٣٨ هـ (١) ، وقسم آخر يجعل وفاته في ذي الحجة من سنة ٢٣٩ . (٢)

وهناك من لايحدد سنة وإنما يورد التأريخين فيقول الحميدي « وكانت وفاته بالأندلس في شهر رمضان سنة ٢٣٨ كذا قال يحي بن عمر وغيره ، وقيل مات في يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة تسع وثلاثين ومائتين بقرطبة » (٣)

أما سنة ولادته فلا نكاد نجد في المصادر من يذكر شيئاً بشأنها سوى السيوطي وهو متاخر ومع ذلك فلم يحدد تاريخاً وإنما ذكر ذلك بصورة تقريبية حين قال : « عبد الملك بن حبيب الفقيه الكبير عالم الاندلس أبو مروان السلمي ثم المرداسي الاندلسي القرطبي ولد بعد السبعين ومائة » (٤) ، نجد من يذكر عمر عبد الملك ونرى المصادر تختلف في تقدير عمره فمن قائل أنه عاش أربعة وستين عاماً (٥) ، ومن قائل أنه عاش ثلاثة وخمسين عاماً كالفتح في المطمح والمقري في النفح وصاحب ترتيب المدارك الذي يرى أنه عاش ستة وخمسين عاماً وآخرين (٦) وهناك من يرى أنه عاش أربعة

(١) تاريخ علماء الاندلس / ص ٢٧٢ ، معجم البلدان ج ٢ ص ٢٤٥ . شذرات الذهب ج٢ص ٨٩ / ٩٠ العبر في خبر من غبر ج ١ ص ٣٠٨ ، والنجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٩٣ .

(٢) المغرب في حلي المغرب ج ٢ ص ٩٦ ، طبقات الحفاظ ص ٢٣٣ ومرآة الجنان ج ٢ ص ١٢٢

(٣) جذوة المقتبس ص ٢٦٤ وبغية الملتمس ص ٣٦٥ والديباج المذهب ص ١٥٦ وغيرهما .

(٤) طبقات الحفاظ ص ٢٣٣ .

(٥) تاريخ علماء الاندلس ص ٢٧٢ ومعجم البلدان ج ١ ص ٢٤٥ ، وشذرات الذهب ج٢ ص ٨٩. وبغية الوفاة / ٣١٢ .

(٦) جذوة المقتبس ص٢٦٤ وبغية الملتمس ص٣٦٥ وطبقات الفقهاء للشيرازي ص١٦٢ وغيرها .

وسبعين عاماً (١) .

وإذا تأملنا هذه المجموعات الثلاث من المصادر والارقام التي أوردتها في تقدير عمر عبد الملك وجدنا المجموعة التي قدرت عمره بأربع وستين سنة ربما كانت أقربها إلى الصواب ذلك أن فيها ابن الفرضي وهو متقدم على الجميع حيث توفي سنة ٤٠٣ هـ ويليه ياقوت ،كما أن الأخذ برقم ٦٤ يتفق مع ما ذهب اليه السيوطي من أنه ولد بعد السبعين ومائة كما ذكرنا آنفاً .ويترجح هذا الرأي عندما ننظر في مواقف الدارسين المحدثين الذين حاول عدد منهم وضع تاريخ لولادة عبد الملك ووفاته خلافاً للقدماء وأُبادر إلى القول بأن ذكرهم لتاريخ ولادة عبد الملك إنما كان بالاعتماد على تاريخ الوفاة وذكر مقدار عمره في المصادر القديمة ولذلك وجدناهم يختلفون في هذا التقدير تبعاً لاختلاف القدامى فيه ، فقسم منهم يجعل ولادته سنة ١٧٤ هـ (٢) وقسم آخر يجعل ولادته سنة ١٧٩ أو سنة ١٨٠ (٣) ، وهناك عدد آخر قد أغفل سنة الولادة فلم يتعرض لذكرها بالتحديد أو التقدير . وهكذا نجد إجماعاً أو شبه إجماع على سنة وفاته وإختلافاً كبيراً في سنة ولادته وتقدير عمره .وازاء ذلك نستطيع أن نرجح بأن ولادته حوالي سنة ١٧٤ أو أكثر منها بقليل وذلك إعتماداً على ترجيح عمره الذي رأينا أن يكون حوالي أربعة وستين عاماً بخاصة وأننا نجد بعض الباحثين المحدثين يتعرض لوفاة عبد الملك مختاراً رأي المجموعة التي تقول « عبد الملك بن حبيب توفي سنة ٢٣٩ وله من العمر أربع وستون سنة »(٤) .

أما التواريخ الأُخرى فإننا لانرى أنها تنسجم مع تأريخ الوفاة من جهة ومع الأخبار التي أشرنا إلى طرف منها من جهة أُخرى قبل قليل. ذلك أن جعل

---

(١) العبر في خبر من غبر ج ١ ص ٤٢٨ ، وتذكرة الحفاظ للذهبي

(٢) الاعلام للزركلي ج ٤ ص ٣٠٤ . مجلة الثقافة المغربية ص ٥٧ مقال سعيد اعراب ص ١٠٧ آ١٠٨

(٣) أثر العرب والاسلام في الحضارة الأوربية ص ٣٧١ . معجم المؤلفين ج آ ص ١٨١ . تاريخ الأدب العربي / بروكلمان ج ٣ ص ٨٦ ، وتاريخ الفكر الأندلسي ص ١٩٥ .

(٤) فصول في الأدب الأندلسي د . حكمت الأوسي ، ص ٦٠ .

الولادةسنة ١٨٠ أو ١٧٩ يعني أن عمر عبد الملك ثمانية وخمسون أوسبعة وخمسون عاماً في الأقل وهو رقم لم يرد في أي من الروايات الكثيرة التي عرضنا جوانب منها وأقرب رقم له هو الذي يجعل عمر عبد الملك ستة وخمسين عاماً ثم يعقب عليه بذكر رواية الشيرازي التي تجعل عمره ثلاثة وخمسين عاماً (١)

أما ماسوى ذلك من الروايات والأخبار فبعيد لايمكن أن يتصور مع الروايات المتوفرة لدينا ، وإذا استطعنا أن نقدر ولادة عبد الملك بحوالي منتصف السبعين بعد المائة كان علينا أن نذكر مكان هذه الولادة، وأكثر المصادر تقول إنه ولد في (البيرة وسكن قرطبة) (٢) ونقرأ في أكثر من مرجع من المراجع الحديثة أنه ولد في حصن واط وقضى صدر شبابه في البيرة وقرطبة((٣)، ومن المعلوم أن قرطبة في الفترة التي نشأ وترعرع فيها عبدالملك كانت تشهد النهضة العلمية والثقافية على نطاق واسع وكان فيها كبار العلماء والمثقفين المشهورين الذين تلقى عنهم عبد الملك ثقافته وعلومه الاولى ومنهم « صعصعة ابن سلام والغازي بن قيس وزياد بن عبد الرحمن .. » (٤)

وتحدثنا المصادر أن عبد الملك بن حبيب قد حصل علوماً كثيرة وألم بأطراف ثقافه واسعة قبل أن يرحل إلى المشرق على عادة الاندلسيين في رحلاتهم العلمية التي كانوا يرونها أمراً ضرورياً لاستكمال العلوم التي بدأوا بتحصيلها في الاندلس وبغية الوقوف على آخر ما توصل اليه المشارقة من الانجازات العلمية والثقافية ، هذا بالاضافة إلى ما تنطوي عليه الرحلة نفسها من المعاني في نفوس الاندلسيين لعل من أبرزها أنهم ينظرون إلى كل من تلقى علومه في المشرق نظرة تختلف عن نظرتهم إلى من لم يسافر .. وتحدثنا بعض المصادر

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٢ ترتيب المدارك ج ٢ ص ٤٧ .
(٢) تاريخ علماء الأندلس ص ٢٦٩ ومعجم البلدان ج ١ ص ٣٤٤ في التعريف بمدينة البيرة .
(٣) تاريخ الفكر الأندلسي ص ١٩٣ . مجلة الثقافة المغربية ص ٥٧ .
(٤) طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٦٢ وترتيب المدارك ج ٢ ص ٣١ وغيرها .

أن عبد الملك قد رحل إلى المشرق حاجاً وأنه تفرغ للعلم والمعرفة بعد أدائه فريضة الحج وأقام بالمدينة المنوّره فترة من الزمن .

ويلاحظ المتأمل في المصادر أنها تختلف في سنة رجوعه من المشرق أما تاريخ سفره فإنه على رأي عدد من هذه المصادر (حج سنة ثمان ومائتين) (١) ولا نجد خلافاً في سنة رحيله بقدر مانجده في سنة رجوعه إلى الاندلس بعضهم يقول أنه«انصرف إلى الاندلس سنة ست عشرة وقد جمع علماً عظيماً.. »(٢) ولكننا نجد ما يدل على أنه تأخر في المشرق إلى ما بعد سنة ٢١٦ فيحدثنا اليحصبي أنه كتب بأبيات إلى أهله من المشرق سنة عشرين ومائتين .. »(٣) ونحن نميل إلى ترجيح القول برجوعه سنة ست عشرة أو أكثر من ذلك لأسباب عديدة لعل من أهمها الفترة الزمنية التي يستغرقها المسافر إلى المشرق ذهاباً وإياباً وقد تزيد على السنة في بعض الأحيان ومنها أن بعض المصادر ذكرت أن تاريخ رجوعه سنة ست عشرة أو أكثر .ومنها الاشارات العديدة التي تدل على اتصاله بالعلماء ومناظراته في الحجاز ومصر.

ومنها الابيات الشعرية التي أوردها اليحصبي وغيره في الحنين إلى وطنه ونفهم منها شوقاً شديداً ولهفة للقاء الأهل الاصدقاءمن العلماء والادباء في الاندلس وسيأتي ذكر هذه الأبيات عند الكلام على شعره .

وأخيراً فإن هناك من ذكر أن (رحلة عبد الملك استمرت ثماني سنوات (٤)

---

(١) شذرات الذهب ج ٢ ص ٨٩ . والعبر في خبر من غبر ج ١ ص ٤٢٨ . ذكر ابن حجر العسقلاني ان عبدالملك رحل سنة ثمان وخمسين ومائتين وذلك وهم لوقوع هذا التاريخ بعد وفاة عبد الملك بعشرين عاماً . انظر تهذيب التهذيب ج آ ص ٣٩٠ .

(٢) الديباج المذهب ص ١٥٤ وقد ذكر اليحصبي انه انصرف سنة (عشر) ولعل لفظة (ست) قد سقطت من الاصل وهو ، ينسجم مع رواية ابن فرحون المتقدمعلى اليحصبي .

(٣) ترتيب المدارك ج ٢ ص ٤٥ ، ٤٦ .

(٤) مجلة الرسالة الإسلامية ص ٥١ ، د . محسن جمال الدين .

والذي نراه أنها استمرت أكثر من هذه المدة للاسباب التي ذكرنا .

ومهما يكن فإن عبد الملك قد مكث في المشرق فترة طويلة لاتقل عن عشر سنوات إن لم تزد عليها وذلك له قيمة كبيرة في افساح المجال أمام العالم الدؤوب للإطلاع على ماتوصل اليه القوم من الإنجازات الثقافية في مختلف العلوم والفنون ولعل من الامور البارزة المهمة في هذه الرحلة لقاؤه بأصحاب الامام مالك وكان هذا اللقاء بالنسبة له هاماً باعتباره أحد علماء المذهب المالكي في الاندلس حيث تحول الاندلسيون اليه بعد أن كانوا على مذهب الامام الاوزاعي .ويصف بعضهم جانباً من نشاطه في المدينة أثناء رحلته فيقول (تردد على مجالس العلم في المدينة المنورة حيث درس مذهب الامام مالك وكان عند رجوعه إلى الاندلس من العناصر الفعالة في تحويل الاندلس إلى المذهب المالكي عن مذهب الاوزاعي ...» (١)

ونلاحظ أن بعض المؤرخين القدامى يقعون في وهم تاريخي عند وصفهم للقاء عبد الملك بأصحاب الامام مالك فيقول صاحب المطمح (انه لقي مالكاً ((٢) ويذكر آخر خبراً عن رحلته فيقول (ويقال أنه أدرك مالكاً آخر عمره ((٣) ويكرر المقري هذه الرواية ويضيف اليها : « ويقال أنه لقي مالكاً آخر عمره وروى عنه سعيد بن المسيب ... »(٤) ويكرر عدد من الباحثين المعاصرين هذه الرواية نفسها دون مناقشة (٥) .. أما مسألة لقاء الامام مالك فانها بعيدة بل مستحيلة الوقوع لسبب هام واضح هو أن الامام مالكاً توفى١٧٩هـ(٦) أي قبل رحيل عبد الملك إلى المشرق بما يقرب من ثلاثين عاماً وحين كان عبد الملك صبياً .

---

(١) تاريخ الأندلس مقدمة لمحقق هامش ص ٢٣ .

(٢) مطمح الأنفس ومسرح التأنس / الفتح بن خاقان ص ٤٠ وجذوة المقتبس ص ٢٦٤ .

(٣) بغية الملتمس / ص ٣٦٥ .

(٤) نفح الطيب ج ٢ ص ٢١٥ .

(٥) المطرب في أدب الأندلس والمغرب / محمد عجاج ص ٩٧ ، والحلل السندسية ج ١ ص ٢٩١. وانظر كذلك الرسالة الإسلامية ص ٥١ .

(٦) انظر في ترجمة الامام مالك الاعلام ج ٦ ص ١٨٦ ومعجم المؤلفين ج ٨ ص ٦٨ وغيرها .

ثقافتـــه وفقهـــه :

كثيراً ما تصف المصادر عبدالملك بأوصاف تدل على سعة علمه وذكائه بل إنه على مايبدو قد عدّ في العلماء قبيل أن يسافر إلى المشرق وعندما كانت سنه لاتتجاوز الثلاثين عاماً إن لم تقل عنها يقول الشيرازي رحل وهو فقيه عالم إلى المدينة فعرض كتبه على عبدالملك بن عبدالعزيز الماجشون ... » (١)

وعقد له اليحصبي فصلا تحت عنوان (ذكر مكانه وثناء الفضلاء عليه) ومما قاله فيه : (كان جماعاً للعلم كثير الكتب طويل اللسان فقيه البدن (٢) نحوياً عروضياً شاعراً نسابة اخباريا وكان أكثر من يختلف اليه الملوك وأبناؤهم من أهل الأدب » (٣) ونجد أحد الأدباء الأندلسيين المشهورين الذين دوّنوا أدب الأندلس وحفظوا لناسير عدد كبير من الأدباء الذين عاشوا قبل القرن السادس الهجري وهو الفتح بن خاقان نجده يثني على عبدالملك ويشيد بمآثره العلمية في شتى الفنون والآداب ، من ذلك قوله فيه : ... خلّدت منه الأندلس فقيهاً عالماً أعاد مجاهل جهلها معالماً وأقام بها للمعالم سوقاً نافقة ونشر منها ألوية خافقة وجلا عن الألباب صدأ الكسل وشحذها شحذ الصوارم والأسل وتصرف في فنون العلوم وعرف كل معلوم وسمع بالأندلس وتفقه حتى صار أعلم من بها وأفقه ....((٤(بل اننا نجده يحتل مكاناً بارزاً من الكتب المشهورة في الأدب واللغة ، ومن يتصفح معجم البكري يجده يعتمد في العديد من صفحاته على عبدالملك بن حبيب ، فقد أورد رأيه بعد شرحه للفظة جمع فقال : (قال عبدالملك بن حبيب : هي المزدلفة (وقال عبدالملك بن حبيب عرنة ليست من عرفة انما هي من الحرم وعرفة خارجة من الحرم ....) . (٥)

---

(١) طبقات الفقهاء ص ٢٨٢.

(٢) فقيه البدن عبارة مبهمة ويبدو أن فيها تصحيفاً أو أن المقصود بها إن صحت (صحة بدنة) .

(٣) ترتيب المدارك ج ٢ ص ٣٢ / ٣٣ وانظر كذلك الديباج ص ١٥٤ .

(٤) مطمح الأنفس ص ٤٠ .

(٥) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع الصفحات ٣٩٢ و ١١٩١ وغيرها .

ولعلنا لانستبعد صحة الرواية التالية التي قرأناها عن ثقافة عبدالملك ومكانته. « لما دنا من مصر في رحلته أصاب جماعة من أهلها بارزين لتلقي الرفقة على عادتهم فكلما أطل عليهم رجل له هيئة ومنظر رجحوا الظن فيه وقضوا بفراستهم عليه حتى رأوه وكان ذا منظر جميل ، فقال قوم : هذا فقيه وقال آخرون بل شاعر وقال آخرون بل طبيب وقال آخرون خطيب ، فلما كثر اختلافهم تقدموا نحوه وأخبروه باختلافهم فيه وسألوه عما هو فقال لهم : كلكم قد أصاب وجميع ما قدرتم أحسنه والخبرة تكشف الحيرة والإمتحان يجلي الإنسان ، فلما حط رحله وأتى الناس شاع خبره فقعد اليه كل ذي علم فسأله عن فنه وهو يجيبه جواب محقق فعجبوا ووثقوا بعلمه وأخذوا عنه وعطلوا حتى علمائهم » . (١)

وقد أبرز الباحثون المحدثون مكانة عبدالملك في كثير من دراساتهم في الثقافة والمثقفين الأندلسيين فسماه بعضهم العالم الشاعر (. (٢)

على أننا لاينبغي أن نغفل الفترة التي عاش فيها عبدالملك وحالة العلوم والثقافة فيها فقد عاصر أميرين أولهما الحكم بن هشام الذي تولى الامارة من سنة ١٨٠ وحتى سنة ٢٠٦ هـ. والثاني الأمير عبدالرحمن من سنة ٢٠٦ إلى ٢٣٨ ، وتتحدث المصادر أن الأمير الحكم كان أديباً شاعراً وناثراً يحب الأدب والأدباء ولكن عبدالملك لم يعل قدره ويرتفع مقامه إلا في ظل عبدالرحمن الأوسط الذي وثبت البلاد وثبتها الثقافية الواسعة بجهوده ورعايته ... (٣) وظهر عبدالملك مؤرخاً وأديباً مقرباً من الأمير و« انتشر سموه في العلم والرواية فنقله الأمير عبدالرحمن بن الحكم إلى قرطبة ورتبه في طبقة المفتين فيها فأقام مع يحي زعيمها في المشاورة والمناظرة » (٤) وتولى التدريس في جامع قرطبة وهو أكبر معهد في العاصمة الأندلسية حتى قال بعضهم رأيته يخرج من الجامع وخلفه ثلاثمائة طالب حديث

(١) الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ص ١٥٥ وترتيب المدارك ج ٢ ص ٣٣

(٢) قضايا أندلسية ص ٧ والاعلام للزركلي ج ٤ ص ٣٠٢ ودولة الاسلام في الأندلس محمد عبدالله عنان ج ١ ٢٧٣ .

(٣) انظر في ذلك الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ص ١٦ / ١٩ .

(٤) الديباج المذهب ص ١٥٤ وترتيب المدارك ج ٢ ص ٣٥ .

وفرائض وفقه واعراب ... » (١)

ويذكر بعض الباحثين المحدثين : « انه كان يقسم طلبته في مسجد قرطبة إلى مجموعات يدرس كل مجموعة علماً » . (٢) وهذا يدل دلالة واضحة على سعة علم الرجل ومعرفته بأهم أساليب التعليم التي تعتمد على تصنيف الطلبة وتدريسهم حسب قابلياتهم ومواهبهم ورغباتهم .... وقد يطول الكلام إذا عرضنا لجملة أُخرى من آراء وأقوال العلماء والمؤرخين والدارسين فيه قديماً وحديثـاً .

آثاره :

ولعل مما يكمل هذه الصورة ويزيدها وضوحاً أن نعرض لبعض المؤلفات التي أوردت المصادر القديمة أسماءها على أنها جزء يسير من أصل ماخلفه ابن حبيب والذي بلغ الفاً أو يزيد كما تذكر مصادر عديدة (٣) غير أننا لا نملك من هذا العدد الكبير سوى أسماء عدد قليل من هذه المصادر ولم يصل الينا من هذا العدد سوى أثرين — فيما نعلم — الأول الرسالة التي نشرها وعلق عليها سعيد اعراب في مجلة الثقافة .والثاني كتاب مخطوط يتناول الأحداث التأريخية في وقت مبكر من حياة الانسان وحتى عصر متأخر وسنذكر الاثرين عند الكلام عن عبد الملك الناثر وعبد الملك المؤرخ .

على أن ذلك لايمنع من ايراد أسماء أهم الكتب التي أوردتها المصادر منسوبةاليه :

١. كتاب الواضحة(٤) في الفقه ويضم — على ما يبدو — مجموعة من الكتب

---

(١) الديباج المذهب ص ١٥٤ وترتيب المدارك ج٢ ص٣٥

(٢) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ص ١٢٦ .

(٣) نفح الطيب ج ٢ ص ٢١٤ ومن المحدثين الاعلام ج ٤ ص ٣٠٢ وظهر الاسلام ج ٣ ص ٢٥. وانظر كذلك المطرب في أدب الأندلس والمغرب محمد عجاج وعلي سعد ص ٩٧ . والحركة اللغوية في الأندلس / البير حبيب مطلق ص ٧٠ / ٧١ ، وعلم التاريخ عند المسلمين .. وعرف صاحب كشف الظنون ببعض كتبه منها : علم اعراب القرآن وشرح الموطأ والواضحة انظر الصفحات ١٢١ / ١٢٣ / ٩٠٩ من الجزء الأول والصفحات ١٩٠٧ / ١٩٩٦ من الثاني

(٤) يبدو من تأكيد المصادر أن كتاب الواضحة أهم كتب عبدالملك في الفقه . سماه بعضهم (مصنف الواضحة) انظر مرآة الجنان ص ١٢٢ . وانظر كذلك روضات الجنات ص٤٣٤

الفقهية منها :

أ . الجامع .

ب . كتاب الفضائل .

ج . كتاب تفسير الموطأ .

د . كتاب غريب الحديث .

هـ . كتاب حروب الاسلام .

و . كتاب المسجدين .

ز . كتاب سيرة الامام في الملحدين .

ح . كتاب طبقات الفقهاء والتابعين .

ط . كتاب مصابيح الهدى .

ومن تواليفه الاخرى :

١ . أعراب القرآن .

٢ . كتاب الحسبة في الأمراض .

٣ . كتاب الفرائض .

٤ . كتاب السخاء واصطناع المعروف .

٥ . كتاب كراهية الغناء .

٦ . كتاب في النسب وفي النجوم .

٧ . كتاب الرغائب .

٨ . كتاب الجامع تأليفه وهو في مناسك النبي (ص) .

٩ . كتاب الورع في العلم .

١٠ . كتاب الورع في المال وغيره ستة أجزاء .

١١ . كتاب الحكم والعمل بالجوارح .

١٢ . كتب المواعظ سبعة .

١٣ . كتب الفضائل سبعة فضائل النبي (ص) وأصحابه وفضائل عمر

بن عبد العزيز وفضائل مالك بن أنس .

١٤ . كتاب أخبار قريش وأنسابها خمسة عشر كتاباً .

١٥ . كتاب السلطان وسيرة الامام ثمانية كتب .

١٦ . كتاب الباه والنساء ثمانية كتب وغير ذلك من كتب سماعه في الحديث والفقه وتآليفه في :

١٧ . الطب وتفسير القرآن ستون كتاباً .

١٨ . وكتاب القاريء والناسخ والمنسوخ ورغائب القرآن .

١٩ . كتاب الرهون والبدي والمغازي والحدثان خمسة وتسعون كتاباً.

٢٠ . وكتاب مغازى رسول الله (ص) اثنان وعشرون كتاباً .(١)

ولا يخفي أن عدد هذه الكتب يتجاوز العشرين باعتبار أن عدد منها يندرج في بعض الكتب الرئيسة ... ومهما يقل في احتمال المبالغة في هذا العدد واحتمال أن يكون بعض هذه الكتب فصولامن أصل كتاب واحد على عادة المؤلفين في تلك العصور حيث كانوا يسمون الفصل أو ما يقل عنه أحياناً كتاباً ... مهما يقل من هذا القبيل فإن هذه الكتب بكثرتها وتعدد موضوعاتها سواء ما كان منها مفقوداً أو مخطوطاً تدل على سعة علم الرجل ، وشمول ثقافية وعلو مكانته في علماء عصره ومثقفيهم حتى أثار ذلك حساده من العلماء والادباء الآخرين وتمثل شيء من ذلك فيما نقله ابن حيان حين قال : « كان يحيى بن يحيى وأصحابه الفقهاء يحسدون عبد الملك بن حبيب لتقدمه عليهم بعلوم لم يكونوا يعلمونها ولا يشرعون فيها اذ كان مع تقدمه عالماً بالاعراب واللغة متفنناً في العلوم القديمة » . (٢)

وربما وجدنا هذا الحسد يتطور إلى الطعن في علمه وضبطه حتى نجده

---

(١) كتاب الديباج المذهب ص ١٥٥ / ١٥٦ وترتيب المدارك ج ٢ ص ٣٥ / ٣٦ ، ومعجم البلدان ج ٢ ص ٣٤٤ . وقد وردت الكتب وأسماؤها واعدادها بصور تختلف عن هذا في مصادر عديدة أخرى .

(٢) المقتبس من أنباء أهل الأندلس ص ٤١ .

عند بعض المتأخرين يتهم بأن روايته ساقطة مطرحه ((١) ويردد شيئاً من من هذا ابن فرحون(٢)واليحصبي ولكنهما يستدركان بأن هذا التضعيف ، تحامل من حساده ويستشهد اليحصبي بقول منذر بن سعيد القاضي الاديب المشهور : ((انك لا تجد أحداً ممن يحكي عنه معارضته والرد لقوله ساواه في شيء وأكثر ما نجد أحدهم يقول كذب عبدالملك أو أخطأ ثم لايأتي بدليل على ما ذكره » . (٣) وشهادة منذر بن سعيد هذه لها قيمتها باعتباره من القضاة الأدباء والعلماء المشهورين في القرن الرابع الهجري.

عبدالملك الأديب :

وإلى جانب الثقافة الإسلامية الواسعة التي كان عليها عبدالملك في مجال الفقه والشريعة والتفسير والسير والمغازي يلاحظ المتتبع لأخباره أنه أديب مارس الأدب في فنيه المشهورين الشعر والنثر تدلنا على ذلك المجموعات الشعرية التي ذكرتها المصادر الأندلسية والمشرقية والأسطر النثرية القليلة التي نقرأوها في عدد آخر من هذه المصادر وإذ كانت الأخبار الدالة على شعره أكثر وأوضح من تلك التي تدل على نثره آثرنا أن نبدأ بالنظر في شاعريته .

وأبادر إلى القول بأن الدكتور محسن جمال‌الدين قد أورد معظم الأبيات التي وجدت في المصادر المشرقية والأندلسية ولكن فاتته بضعة أبيات أخرى سأنبه عليها في مواضعها . (٤)

ومما تجدر الإشارة اليه أن مكانة عبدالملك الأدبية نوهت بها المصادر التي ترجمت له فوصفه بعضها بأنه « كان قد جمع علم الفقه والحديث وعلم الإعراب واللغة والتصرف في فنـون الأدب وله تصانيف جمة في أكثر الفنون .. » . (٥)

(١) لسان الميزان لابن حجر ج ٤ ص ١٧٤ فيما ينقله عن ابن حزم .
(٢) الديباج المذهب / ص ١٥٦ وترتيب المدارك ج ٢ ص ٣٦ / ٣٧ حيث يعقد الأخير فصلا بعنوان ذكر ما تحومل به عليه .
(٣) الديباج المذهب ص ١٥٦ وترتيب المدارك ج ٢ ص ٣٨ .
(٤) أنظر مقال الدكتور جمال‌الدين المنشور في مجلة الرسالة الإسلامية .
(٥) أنباه الرواة على أنباه النحاة / القفطي ج ٢ ص ٢١٦ وتاريخ علماء الأندلس ص ٢٧٢ .

ووقف الباحثون المحدثون على بعض جوانب أدبه والأخبار المتواترة عنه فأشادوا بذكره وأكدوا على مكانته وعرف بعضهم بالجانب الأدبي من ثقافته فقال : « ومن الذين الفوا في الأدب في هذا العصر عبدالملك بن حبيب (توفي سنة ٢٣٩ (.... وكان أديباً نحوياً حافظاً وشاعراً متصرفاً في أضرب العلوم المختلفة في الأخبار والأنساب والأشعار وكانت له مؤلفات جيدة في الأدب .. (١)

ومن النماذج الشعرية التي ذكرتها المصادر أبيات يذكر فيها ابن حبيب شيئاً عن وضعه المالي ويشير إلى تفوق المغنين وتفضيلهم في العطاء والمنح عليه وعلى أمثاله من العلماء والفقهاء على قلة الفوائد التي يجنيها المجتمع من المغنين مقابل كثرتها وأهميتها لدى العلماء والفقهاء والمثقفين وكذلك مع الفارق الكبير بين جهد الإثنين :

صلاح أمري والذي ابتغـــى سهل على الرحمن في قدرته
ألف من البيض — وأقلـل بها لعالم أو في عـلى بغيتـه (٢)
يأخذهـــا زرياب فـــي رفقه وصنعتي أشـــرف مـــن صنعته

وقد ذكر صاحب المغرب أن المغني زرياب (٣) قد غنى بين يدي الأمير عبد الرحمن الاوسط بشعر أطربه فأعطاه ألف دينار ....

والابيات تدل على ظاهرة إجتماعية شائعة في عصر عبد الرحمن الأوسط وهي مكانة المغنين والامتيازات التي كانوا يتمتعون بها وحالتهم المادية التي تتسم بالرفاه وسعة العيش مقابل ضيق وحاجة في أوساط اخرى في مقدمتها العلماء والفقهاء وقد أشار أحد الذين ترجموا لعبد الملك وأوردوا هذه الابيات ضمن الآثار الآدبية التي ذكرها له ، بأن عبد الملك « لم يكن من أهل السعة

(١) فصول في الأدب الأندلسي ، د . حكمت الأوسي ص ٦٠ وانظر كذلك : الحركة اللغوية في الأندلس

(٢) وردت هذه الأبيات في طبقات النحويين ص ٢٨٢ والجذوة ص ٢٦٥ والمغرب ج ٢ ص ٩٦ . وأنباه الرواة ج ٢ ص ٢٠٦ والديباج المذهب ص ١٥٦ وترتيب المدارك ج ٢ ص ٤٦ ونفح وقد ذكرها الدكتور جمال الدين في مقاله .

(٣) زرياب : أبو الحسن علي بن نافع ، نشأ بالمشرق تلميذاً لاسحق الموصلي في الغناء سافر إلى الأندلس ونال شهرة واسعة : انظر ترجمته في المطرب لابن دحية ص ١٤٧ . وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ..

في دنياه ،بل كان من المقتر عليهم رزقهم » .(١)

ويرى بعض الباحثين أن عبد الملك أراد بهذه الأبيات أن ينفس عن نفسه ويبين أن رغبته في الحياة سهلة يسيرة ولكنه لم يستطع الوصول اليها مع أن قليلاً من المال يبلغه ما يريد » (٢) ونحن نعتقد أن مراد عبد الملك ابراز الفرق بين طبقته وطبقة المغنين ومن بينهم ولا يقتضي ذلك أن يكون متطلعاً إلى الحياة السهلة اليسيرة وأن قليلاً من المال يبلغه هذه الحياة وواقع الرجل في مكانته وجهوده يلقي ضوء واضحاً على هذه النظرة

ولعبد الملك أبيات اخرى توجه بها إلى الأمير عبد الرحمن الاوسط في يوم عاشوراء يحثه على الوفاء بالمستلزمات الاسلامية لهذه الذكرى فقال :

لاتنس — لا ينسك الرحمن—عاشورا وأذكره لازلت في الأحياء مذكورا
قال النبي صلاة الله تشـملـه قولا وجدنا عليه الحق والنورا
من بات في ليل عاشوراء ذا سعة يكن عيشه في الحـول محبورا(٣)
فارغبفديتك — فيما فيه رغبتا حيز الورى كلهم حـياومقبورا(٤)

وأورد المقرى ثلاثة أبيات منها مع اختلاف بين في بعض الألفاظ على النحو التالي :

لاتنس — لاينسك الرحمن—عاشورا وأذكره لازلت في التأريخ مذكورا
قال النبي صلاة الله تشـملـه قولاً وجدنا عليه الحق والنورا
فيمن يوسع في انفاق موسمـه أن لايزال بذاك العام ميسورا(٥)

(١) أنباه الرواة على أنباه النحاة ج ٢ ص ٢٠٦ .
(٢) قضايا أندلسية د . بدير متولي حميد ص ٣٧ .
(٣) المقتبس / ا ن حيان ص ٤٨ .
(٤) هكذا ورد البيت — وفيه نقص — ولعل اضافة لفظة مثل (مدى) بعد لفظة (يكن) تعين على استقامة الوزن .
(٥) نفح الطيب ج٢ص٤١٢ ويبدو ان الدكتور جمال اعتمد هذه الرواية

ولاشك أن الباحث يفضل رواية ابن حيان على رواية المقري لمكانة الأول في مؤرخي الأندلس وتقدمه على المقري في الزمن والمكانة العلمية والثقافية مما أجمع عليه المؤرخون والدارسون قديماً وحديثاً . (١)

وإذا كانت هذه الأبيات من حيث مضمونها تتسم (بالبساطة) (٢) والوضوح والسهولة كما يرى بعض الباحثين فإن لها دلالة أخرى تتمثل في معالجة القضايا الإسلامية واحياء المناسبات والتذكير بأهميتها وأثرها في المجتمع وما ينبغي على الناس أن يقوموا به ازاءها وبخاصة الأمراء باعتبارهم قدوة لغيرهم وأسوة لرعيتهم وهم أقدر على إيفاء حق هذه المناسبة من عامة الناس.

وأخيراً فإننا نستطيع أن نلمح في الأبيات مظهراً من مظاهر الحياة الأندلسية والمجتمع الأندلسي في هذه الفترة ، ذلك المظهر الذي يدل على الإهتمام بهذه المناسبات واحيائها في ضوء التوجيهات النبوية الواردة بشأنها والتي انطلق منها عبدالملك في أبياته داعياً إلى التوسعة على المحتاجين والمعوزين استجابة لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه المناسبة وأمثالها .

ويأتي شعر عبدالملك أحياناً خلال المراسلات النثرية التي كان يكتبها لأصدقائه من الأدباء والعلماء ومن هذا النوع نجد أبياتاً أوردتها المصادر الأندلسية والمشرقية وهي موجهة ضمن رسالة بعث بها إلى صديق له من الأدباء اسمه محمد بن سعيد الزجالي (٣) أوردها الزبيدي إذ قال : (وكتب عبدالملك إلى محمد بن سعيد الزجالي (رسالة وصلها بهذه الأبيات : (٤)

كيف يطيق الشعر من أصبحت حالته اليوم كحال الغرق

---

(١) ينظر مثلا : مقدمة الدكتور محمود علي مكي في تحقيقه لجزء من المقتبس . ومجلة العربي عدد ٨٨ سنة ١٩٦٦ . مقال (المؤرخ ابن حيان وكتابه المقتبس في تاريخ الأندلس) للاستاذ محمد عبدالله عنان . (٢) قضايا أندلسية ص ٣٦ .(٣) محمد بن سعيد الزجالي أديب وكاتب للأمير عبدالرحمن الأوسط انظر في ترجمته : المغرب ج ١ ص ٣٣٠ . والمقتبس ص

(٤) طبقات النحويين ص ٢٨٢ .

إذا قرضت الشعر أو رمته حالت همومي دونه فانغلق
والشعر لا يسلس الا على فراغ قلب واتساع الخلق
فاقنع بهذا القول من شاعر يرضى من الحُضْر بأدنى العنق
أما ذمام الود مني لكم فهو من المحتوم فيما سبق
ما حلت عن عهدك لا والذي يجود بالرزق على من خلق

وقد وردت الابيات في مصادر أُخرى ولكنها تختلف عنها في بعض الألفاظ وعدد الأبيات فقد أوردها الفتح على الشكل التالي(وكتب إلى محمد بن سعيد الترحالي رسالة ووصلها بهذه الأبيات :

كيف يطيق الشعر من أصبحت حالته اليوم كحال الفرق
فاقنع بهذا القول من شاعر يرضى من الحفر بأدنى العنق
فضلك قد بأن عليها كما بأن لأهل الأرض ضوء الشفق
أما تمام الود مني لكم فهو من المحتوم فيما سبق (٢)

ويروى المقري الأبيات بالشكل التالي(وكتب إلى الزجالي رسالة وصلها بهذه الأبيات (٣) :

والشعر لا يسلس الا على فراغ قلب واتساع الخلق
فاقنع بهذا القول من شاعر يرضي من الخط بأدنى العنق (٤)
فضلك قد بأن عليه كما بان لأ هل الأرض ضوء الشفق
أما ذمام الود مني لكم فهو من المحتوم فيما سبق

ويلاحظ أن أبيات الرواية الاولى أكثر من الأبيات الواردة في كل من روايتي الفتح والمقرى و بيت الثاني والبيت الأخير في الرواية غير موجودين

---

(١) الحضر : بضم وسكون وضم : ارتفاع الفرس في عدوه — القاموس ج ٢ ص ١٠
العنق : ضرب من السير فسيح سريع للإبل والخيل — انظر المعجم الوسيط حـ ٢ ص ٦٣٨
(٢) مطمح الأنفس ص ٤١ . (٣) نفح الطيب ج ٢ ص ٢١٦ ، ويبدو أن الدكتور جمال الدين اعتمد هذه الرواية .
(٤) الكلمة جاءت بهذا الرسم هنا (الخط) وفيها تصحيف واضح والصحيح كما رويت سابقاً .

في روايتي الفتح والمقرى، كما أن هاتين الروايتين تختلف ثانيتهما عن الاولى بوجود البيت الثاني .

ونحن نفضل الرواية الاولى لانها وردت في مصدر سابق على مصدري الروايتين التاليتين إذ من المعلوم أن الزبيدي قد توفي سنة ٣٧٩، أما الفتح فمن رجال القرن الخامس وأوائل السادس وأما المقرى فمتأخر عن الاثنتين كثيراً .

ومهما يكن من أمر الاختلاف في الأبيات مما اضطررنا لذكر الروايات المتعددة المختلفة فإن هذا لايغير من دلالتها على تصوير حالة نفسية يبدو أنها عرضت لعبد الملك فقد كان على ما يبدو يعاني من قلق وانشغال فكر لايمكنه من التفرغ لنظم الشعر الذي لابد له من خلو بال وحضور قلب وهدوء حال واستقرار ويرجع بعض الباحثين هذا إلى ظاهرة عامة يمكن أن تلاحظ في حياة الأندلسيين الذين كانت« ظروفهم لاتسمح لهم بمعالجة الأشعار التي تمثل حياة الدعة والترف ، من الغزل والوصف ومجالس اللهو وهذا عبدالملك ابن حبيب السلمي العالم الشاعر الذي توفي سنة ٢٣٨ هـ يقول : ان الإنشغال وعدم الإطمئنان وقلة فراغ البال تدعو إلى الإنصراف عن الشعر والتجويد فيه وقد كتب رسالة إلى صديقه محمد بن سعيد الزجالي وصلها بهذه الأبيات(١)

وفي رأيي أن أبيات عبدالملك الصق بنفسه وشخصيته وثقافته من أن تكون ظاهرة عامة تسري على جميع شعراء الأندلس بل وحتى على شعراء عصره فقط بدليل أن شعر الشعراء يحوي أغراضاً متعددة ولم يقتصر على غرض واحد بعينه .

ولدينا نموذج آخر من شعر عبدالملك يقرب في ظروفه من ظروف الأبيات السابقة فهو وارد أيضاً ضمن رسالة نثرية كما تحدثنا المصادر ، غير أننا لانجد شيئاً من نثر هذه الرسالة سوى الأبيات والإشارة إليها : (وكتب بن حبيب إلى الرشاش(٢) الأديب يستهديه مداداً ووجه إليه قارورة كبيرة(: —

(١) قضايا أندلسية ص ٧

(٢) الرشاش : أبو عثمان سعيد بن الفرج المعروف بالرشاش : أديب مترسل مشهور في عصر عبدالرحمن الأوسط ترجم له صاحب المغرب ج ١ ص ١١٤ وغيره .

إحتجت مـــن حبر إلى ســقية فامدد لـــنا منه (مـــرساك((١)
وآبعـــث وآن قلّ بـــه طيـباً ولا تكن دونـــا فنلـــحـــاك
ولا تهـــولنـــك قارورتـــي فإنهـــا أقنع مـــن ذاك(٢)

ولعلنا نلاحظ طابع البساطة — شكلاً ومضموناً — على هذه الأبيات فموضوعها عادي يمكن أن يسلك في غرض الشعر الإجتماعي أو الإخوانيات وأما اسلوبها فيتسم بالبساطة والوضوح ولكنه مع ذلك يدل على موهبة في الشعر واضحة . ومما يتصل بهذا الشعر موضوعاً وشكلا بيت واحد أورده ابن حيان بعد أن قدم له بقوله أن (له بيت شعر في التعريض ببعض قضاة الأمير عبدالرحمن ضمنه كتاباً خاطبه في شأنه (من الخفيف) :

كـان بالقاسطين منـــا رؤوفاً وعلى المقسطين ســوط عـــذب(٣)

على أننا نستطيع أن نفهم من البيت غرضاً آخر غير مادلت عليه الأبيات السابقة وهو نقد الأوضاع وآلأشخاص وبخاصة المقربين للأمير من القضاة فهو يصور القاضي بالإنحراف عن الحق بظلمه للناس ومحاباته للظالمين حتى كان بهم رؤوفاً رحيماً بينما هو على المحرومين وآلمظلومين سوط يلهب ظهورهم وينزل بهم أنواع العذاب والبلاء .

ومرة أُخرى نلاحظ إفتقار الرسالة إلى النص النثري وآقتصارها على النص الشعري مع أن الإشارة واضحة إلى هذا البيت ضمن رسالة نثرية بل إننا نستطيع أن نرجح بأن هذا البيت قد لايكون الوحيد وإنما هو واحد من مجموعة أبيات لم تصلنا كاملة . ومما نلاحظه في البيت المذكور تأثر عبدالملك

---

(١) يبدو أن في البيت نقصاً وخاصة في شطره الثاني، ولعل حرف الباء قد سقط من لفظة(مرساك) إذ لا يستقيم الوزن إلا بوجوده .

(٢) ترتيب المدارك ج ٢ ص ٤٥ . ولم ترد الأبيات في أي مصدر آخر . كما لم تذكر في مجلة الرسالة الإسلامية .

(٣) المقتبس ص ٤٨ ، ولم يذكر البيت في مجلة الرسالة الإسلامية .

بالقرآن الكريم والفاظه فلفظة القاسطين وتعني الظالمين وردت في قوله تعالى : « وأما القاسطون فكانو لجهنم حطبا »(١) وأما لفظه المقسطين فتعني العادلين المنصفين وقد وردت في قوله تعالى: وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل وأقسطو إن الله يحب المقسطين» .(٢)

فإذا توقفنا قليلاً بعد هذه الصورة الشعرية التي أوردناها لعبدالملك وأعدنا النظر في جميع الصور الأخرى السابقة عليها وجدناها تمثل لنا شعر عبدالملك في ظل الأمير عبدالرحمن الأوسط وبعد رجوعه من رحلته الإسلامية العلمية إلى المشرق والتي قدرنا أنها إستغرقت حوالي عشر سنوات أو أكثر ، أما الصور التي سنوردها الآن فهي تمثل لنا الشعر الذي قاله عبدالملك أثناء رحلته ومن المؤسف أننا لانملك من هذه الصور الشعرية سوى إثنتين : —

أما أولاهما فقد قالها عبدالملك دفاعاً عن نفسه وتأكيداً لشخصيته الثقافية ومنزلته العلمية حيث يفهم منها أنه قوبل بحذر وتحفظ بل ربما بأعراض وفتور يدل على جهل بحقيقته وآستصغار لشأنه (... وحكى أنه قال في دخوله الشرق وحضر مجلس الأكابر فازداراه من رآه فقال : —

لا تنظـــرن إلى جسمي وقلّتـه ... وآنظر لصدري وما يحوي من السنن
فرب ذي منظر من غير معـــرفة ... ورب من تزدريه العين ذو فطن
ورب لؤلؤة في عـــين مزبلـــة ... لم يلق بال لها إلا إلى زمـــن(٣)

ونفهم من الأبيات بالإضافة إلى الفتور الذي إستقبل به عبدالملك أبان وصوله المشرق نفهم أنه كان نحيف الجسم رقيقاً لايلفت مظهره نظر الناس ولا يتوقعون أن ينطوي مثله على ذلك العلم الذي حواه . كما نفهم أيضاً

---

(١) سورة الجن آية (٦) ، وانظر تفسير اللفظة في القاموس ج ٢-ص ٣٩٥ .
(٢) سورة الحجرات ، آية (٩) ، وانظ تفسير اللفظة في القاموس ج ٢ ص ٣٩٥ .
(٣) مطمح الأنفس ومسرح التأنس ص ٤١ . ونفح الطيب ج ٢ ص ٢١٦ ، وقد وردت في مجلة الرسالة الإسلامية .

معالجة عبدالملك لآفات إجتماعية طالما نخرت في جسم االتمع في كل زمـان ومـكان وهـي إعتمـاد المظـاهر مقيـاساً للإحترام والتعظيم والحكم على الأمور والأشخاص بالظاهر السطحي دون آلباطن الحقيقي . وكم ضاع من آلناس وفقدوا ماكان ينبغي لهم من الإحترام والتعظيم بسبب هذا آلمقياس ومنهم من أُهمل وكان محط آزدراء وآحتقار إلى زمن طويل حتى يتهيأ له أن يكشف عن نفسه ويثبت بطلان آلحكم عليه كاللؤلؤة الملقاة في مزبلة لايتوقع أحد أن يجدها في مثل هذا آلمكان وقد يطول زمن ضياعها حتى يتهيأ لها أن تُرفع وتُوضع في مكانها الصحيح .

ومن أبيات هذه آلمجموعة الصورة الثانية التي قالها في المشرق ويبدو أنه كتب بها إلى أهله سنة عشرين ومائتين :—

أُحبُ بلاد الغربِ والغرب موطني ... ألا كل عربيّ عـليَّ حبيبُ
فيا جسداً أضناه شوقٌ كأنه ... إذا نُضيت عنه الثياب قضيبُ
ويا كبداً عادت رُفاتاً كأنها ... يلدّغها بالكاويات طبيبُ
وأهلي بأقصى مغرب آلشمس دارهم ... ومن دونهم بحر أجشّ مهيبُ
وهول كريه ليله كنهاره ... وسير حثيث لركاب (تنوبُ) (١)
فما الداءُ إلا أن تكون بغُربة ... وحسبُكَ داءٌ أنَّ يُقال غريبُ
فياليتَ شعري هل أبيتن ليلةً ... بأبأكنافِ نهر الثلج حين يصوفي
وحولي صحابي وبنتي وأُمها ... ومعشر أهلي والرؤوف مجيب(٢)

ولا يخفى أن هذه آلأبيات تمثل غرضاً طالما تردد في شعر الأندلسيين القرنين الثاني والثالث الهجريين فكثيراً ماكانوا يحنون إلى أوطانهم ويرسلون الزفرات الحرى يصوغونها شعراً معبراً أصدقَ تعبير عن حُبهم لوطنهم وتعلقهم به كالذي نجده لعبدالرحمن الداخل في مخاطبته نخلة وجدها في الأندلس فذكرته بأهله ووطنه في المشرق :

(١) لعل لفظة (دؤوب) بدل (تنوب) في آخر هذا البيت حيث يكون المعنى أكثر دقة واستقامة.
(٢) ترتيب المدارك ج ٢ ص ٤٦ والديباج المذهب كاملة سوى اختلاف وتصحيف في بعض الألفاظ وقد ذكرت الأبيات في الرسالة الإسلامية سوى البيت السادس .

تبدّت لنا وسط الرصافة نخلةٌ تناءت بأرضِ الغربِ عن وطنِ النخل
فقلتُ شبيهي في التغرُّبِ والنوى وطول التنائي عن بنيَّ وعن أهلي
نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ فمثلكِ في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتكِ غوادي المزن في المنتأى الذي يسحّ ويستمري السماكين بالوبل(١)

وتذكرنا هذه الأبيات بقصائد عديدة لشعراء مشارقة في هذا المعنى أو غيره ولكن في نفس القافية والوزن كما يدل على تأثر الأندلسيين بالمشارقة وحرصهم على محاكاتهم في أدبهم وبخاصة في فترة القرنين الثاني والثالث أي الفترة التي عاش بها عبدالملك بن حبيب .(٢)

عبدالملك الناشر

وإذا جئنا إلى النظر في الملكة الأدبية الثانية – وهي الكتابة والنثر وجدنا قدراً قليلاً لايُعين على تكوين صورة واضحة متكاملة عن النثر الذي كان عبدالملك يمارسه ولكنه على كل حال يعطي فكرة موجزة ولمحة خاطفة... ولقد أشرنا سابقاً إلى أن بعض النصوص الشعرية وردت ضمن رسائل بعث بها عبدالملك إلى الأمير عبدالرحمن تارة وإلى أصدقائه تارةً أُخرى لكننا لانجد بين أيدينا نصوص هذه الرسائل وأشرنا كذلك إلى أن هذا كان نهجاً عاماً لدى الأدباء الأندلسيين وهو الإنتقال من النثر إلى الشعر لتجديد نشاط القارىء وتشويقه إلى الإستمرار في القراءة والتتبع ولكن المؤسف أن لانجد هذه النماذج كاملة بين أيدينا مما يجعل أمر القول في نثر عبدالملك وخصائصه محاطاً بكثير من التحفظ والحذر ومتسماً بالعموم والإجمال أكثر من انصافه بالتخصيص والتفصيل .

وينفرد اليحصبي (٣) بإيراد نص فيه أسطر قليلة يمكن أن تُعد نموذجاً من نثر عبدالملك وتنبهنا على ممارسته لهذا الفن بشكل أوسع وأشمل وإن لم يكن قد وصلنا كاملاً .

(١) البيان المغرب ابن عذاري المراكشي ج ٢ ص ٩٠ ، وانظر كذلك ص ٨٩ أبيات أخرى في نفس المعنى أو قريب منه لعبدالرحمن الداخل نفسه .
(٢) وقد أشار الدكتور محسن جمال الدين إلى هذا التأثر اشارة عامة ، انظر الرسالة الإسلامية ص٥٥
(٣) ترتيب المدارك ج ٢ ص ٤٦ / ٤٧ .

(ولما بلغه من تحامل الفقهاء عليه ، ما شق عليه ، كتب إلى الأمير عبد الرحمن : ـ أسبغَ الله على الأمير كرامته وأعلى في الجنة درجته ، ان العذري أكرم الله الأمير قال أبياتاً أُعجبَ بها العلماء (مافيها مثل يضرب على الأمير) في خاصة نفسي واليسير من التعرض يكفي غيره من التصريح كما قال الشاعر :

لذى اللُبِ قبل اللوم ماتقرع العصا وما علم الإنسان إلا ليعلما (١)

وهي :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه في القومِ أعداءٌ له وخصوم (٢)
كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغياً إنه لدميم
يلقى اللبيبُ مشتماً لم يجترم شيم الرجال وعرضه مشتوم

وما هذا إلا كما قال زهير :

وأخذ التحمي ليس يبرحُ حاملاً ذنباً عليك عرفت أم لم تعرف (٣)

ونجد نموذجاً يمكن أن نضمه إلى الأسطر السابقة لكي نستطيع أن نقف على بعض الخصائص النثرية التي امتازت بها كتابة عبدالملك ...

وهذا النموذج : نص رسالة كتبها عبدالملك إلى معلم ولده وقد نشرها (٤) سعيد اعراب ودرسها من الوجهة التربوية والتعليمية ، وسنأتي لدراسته هذه بعد قليل.

أما نص الرسالة فهو : ـ

فليكن أول ماتؤدب نفسك ، فإن عيني متعلقة بهم وأعينهم متعلقة بك ،

---

(١) ورد البيت منسوباً للمتلمس في ديوانه بهذه الصورة :

لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا وما علم الانسان إلا ليعلما

انظر ديوان المتلمس ص ٢٦ تحقيق حسن كامل الصيرفي ١٩٧٠ ، ونسبه ابن عبد ربه لعقيل بن أبي طالب (انظر العقد الفريد جـ ٤ ص ٦) .

(٢) أورد ابن قتيبة في عيون الأخبار جـ ٢ ص ٩٠ هذه الأبيات في باب الحسد ولم يسم قائلها كما قدم البيت الأخير وجعله أولا وأورد ه بهذه الصورة :

وترى اللبيب محسداً لم يجترم شيم الرجال وعرضه مشتوم

(٣) لم أقف على هذا البيت في ديوان زهير بن سلمى ولا في ديوان ابنه أبي كعب . وفيه تصحف على ما يبدو ولعل (أخو) بدل أخذ هي الاصل ليستقيم الوزن والمعنى) .

(٤) نشرت الرسالة في مجلة الثقافة المغربية جـ٧ سنة ١٩٧٢ .

فالحسنُ لهم ماآستحسنتَ والقبيحُ عندهم ما آستقبحتَ ، علمهم كتاب الله ولا تُكرههم عليه فيملّوه ولا تخرجهم من فن إلى فن حتى يحصّلوه لأن آزدحام العلوم مضلّةٌ للفهم ومشقةٌ للذهن ، وعلمهم من الشعر أعفّه ومن الحديث أشرفهُ وكنْ لهم مثل الطبيب المُشفق لايضع الدواء إلا في موضع الداء وهددهم بي ولا تضربهم دوني وأجعل أدبكَ لهم مدحاً يزدادون رفقاً وشوقاً وتطلقهم في النهار ثلاثة أوقات : بعد الصحو للإفطار ، وقبل الظهر للغدا وبعض الراحة ، ومع عشية النهار وذلك بحسب قصر النهار وطوله ، يوسع عليهم في طوله ويضيق عليهم في قصره ، وآطلقهم يوم الخميس بعد كتبهم للألواح وإصلاحها وتجويدها ، وليس عليهم رجوع إلى المكتب إلا صبيحة السبت» (١)

والنص الأول مع الأبيات فيدل بوضوح على تحامل الفقهاء وحسدهم لعبدالملك وأنه كان في وقت ما هدفاً يرمى من قبل الحاسدين والمبغضين ..

وهو إلى جانب هذا يدل على تأثر عبدالملك بالشعراء والأدباء المشارقة وحفظه لأشعارهم وآستشهاده بمجموعات من أبياتهم في نثره وشعره .

وربما استطعنا أن نلمح اتجاهاً نقدياً يعتمد الموازنة بين المعاني وارجاعها إلى قائليها ولكنه على كل حال اتجاه ضعيف ولمحة خاطفة لا تمكن من الحكم الواضح ولا تسوغ وصف عبد الملك بالنقد على أن النصين الاول والثاني إذا نظر اليهما من خلال دلالتهما النثرية أمكننا القول بأن عبد الملك ناثر وان له اسلوباً واضحاً فيهما غير أن هذا الاتجاه لا يكاد يخرج عن اسلوب المشارقة بل نجد نصاً مشابهاً للجاحظ نسبه الى عتبة ابن بي سفيان في وصية لمؤدب ولده : ((... ليكن أول ما تبدأ به من اصلاحك بني اصلاحك نفسك فإن أعينهم معقودة بعينك فالحسن عندهم مااستحسنت والقبيح عندهم ما استقبحت ، علّمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملّوه ولا تتركهم فيه فيهجروه ثم روّهم من الشعر أعفه ومن الحديث أشرفه ولا

(١) مجلة الثقافة المغربية ج٧ سنة ١٩٧٢ مقال سعيد اعراب .

تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه فإن ازدحام الكلام في السمع مضلّة للفهم ، وعلّمهم سير الحكماء وأخلاق الادباء وجنبهم محادثة النساء ، وتهددهم بي وأدبهم دوني وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الماء ولا تتكل على عذرى ، فإني قد اتكلت على كفايتك وزد في تأدبيهم أزدك في برّي إن شاء الله)) (١) .

ويتضح من النصين أن بينهما تشابها كبيراً إلى درجة تدفع إلى القول ، باعتماد أحدهما على الاخر فكان عبد الملك أخذ هذه الوصية ونسج على منوالها وأعتمد بعض عباراتها ولكنه خالف في بعض مبادىء التربية وأضاف إليها المنهج اليومي للتعليم كما سنرى عند النظر في الرسالة من الوجهة التربوية والتعليمية.

غير أن مايجعلنا في الحكم باعتماد عبدالملك على الجاحظ أن البيان والتبيين لم يظهر في المشرق إلا بعد سنة ٢٣٣(٢) وإذا كانت وفاة عبدالملك سنة ٢٣٨ أو ٢٣٩ على ما مر بنا فإن من الصعب أن نتصور وصول كتاب البيان إلى الأندلس بهذه السرعة كما أن كتابة عبدالملك رسالته إلى معلم ولده تلفت نظرنا إلى أن هذه الرسالة ربما كتبت قبل هذا التاريخ بفترة ، لأن أولاده قرؤا العلم عنه وكانوا كباراً عند وفاته(٣) .

ومهما يكن من أمر التشابه أو الإختلاف بين الرسالتين فإن رسالة عبدالملك تعطينا صورة عن خصائص كتابته التي تتميز بالسجع وقصر العبارة ... وغيرها من الصفات ولخصائص التي نجدها في اسلوب الجاحظ خاصة وأساليب كتاب المشرق عامة ولعل مما يؤيد هذا أن الأندلسيين في هذه الفترة كانوا معنيين أشد العناية بمتابعة أهل المشرق وترسم خطاهم في الأدب شعره ونثره . وإذا كنا في شك

(١) البيان والتبيين جـ٧ ص ٧٣ .

(٢) ذلك ما توصل اليه عبد السلام هارون في مقدمته لتحقيق البيان والتبيين . ، بعد النظر في علاقة الجاحظ بأحمد بن أبي دواد وتوجه الجاحظ بكتاب البيان اليه قبيل وفاته سنة ٢٣٣ انظر مقدمة المحقق للبيان والتبيين ص١٥/١٦ .

(٣) ترتيب المدارك جـ٢ ص ٤٨ والديباج المذهب ابن فرحون ص ١٥٤ .

من اعتماد عبدالملك على الجاحظ في هذه الرسالة فنحن أمام احتمال القول بنسبتها إليه في وقت متأخر من حياته وإذا كان سعيد أعراب قد نشرها وهو يعتقد أنها لعبدالملك من خلال العبارات التي تبدو واضحة فيها ... فلم يبق أمامنا إلا أن نفترض اعتماد عبدالملك على أدباء آخرين أو على تيار النثر المشرقي بصورة عامة وذلك يمكن أن يكون قد حدث في رحلته للمشرق واطلاعه على اسلوب الجاحظ وغيره قبل أن يظهر البيان والتبيين .

عبدالملك المعلم والمربي :

وإذا أعدنا النظر في هذه الرسالة من خلال النهج التربوي والتعليمي وجدناها قد احتوت جملة من التوجيهات التربوية والتعليمية في تربية الصبية وتعليمهم وفق أحدث الوسائل التعليمية وألوان النهج المتبعة الآن في أماكن عديدة من العالم وهي مثار دراسات المتخصصين والمعنيين بشؤون التربية والتعليم ...

وقد إلتفت سعيد أعراب إلى أهمية هذه الرسالة بعد أن عثر عليها مخطوطة ونشرها ثم علق عليها باستنباط أهم القواعد والأسس التربوية والتعليمية التي كان عبدالملك يرى ضرورة اتباعها من قبل المعلمين لتكون رسالتهم ايجابية منتجة وتكون جهودهم ناجحة مثمرة . وسأورد ملخصاً لهذه النقاط مع الإشارة إلى النصوص التي استنبطت منها :—

١ . شخصية المعلم وما ينبغي أن تكون عليه من القدوة الحسنة والسيرة الفاضلة وهي من قول عبدالملك في صدر الرسالة (فليكن أول ما تؤدب به نفسك فإن عيني متعلقة بهم وأعينهم متعلقة بك ، فالحسن لهم ما استحسنت والقبيح عندهم ما استقبحت ...) .

٢ . ويخطط ابن حبيب لتعليم أبنائه منهجاً يضم من أهم فِقَره و اولى مواده : (تعليم كتاب الله(حفظاً ومدارسة وترتيلاً لما في ذلك من أثر كبير في رسوخ العقيدة الصحيحة واستيعاب الاصول الأولى لأكثر العلوم العربية والاسلامية مما يشكل القرآن الكريم أصلاً أصيلاً له .

٣ . وينصح ابن حبيب معلم ولده أن يأخذهم بالرفق والترغيب دون الاكراه والترهيب وذلك واضح في قوله : (ولا تكرههم عليه فيملّوه و ...) .
٤ . ومن القواعد الأساسية في التربية والتعليم حتى الآن — وقد إلتفت إليها عبدالملك التدرج في تدريس الموضوعات للطلبة فلا ينتقل بهم من موضوع إلى آخر حتى يستوعبوه ويقفوا على تفاصيله ودقائقه فيقول : (ولا تخرجهم من فن إلى فن حتى يحصّلوه لأن ازدحام العلوم مضلّة للفهم ومشقة للذهن) .
٥. ومن المواد التي تضمنها منهج عبدالملك في التربية والتعليم : تعليم الشعر ولكنه قيّد ذلك بأن يكون الشعر الذي يدرس مبرء من المجون والعَبَث أو القبح والهجاء .
٦. ويحث المعلم على تعليم الحديث الشريف فيقول : (وعلمهم من الشعر أعفّه ومن الحديث أشرفه) ويقصد بشرف الحديث صحته وسلامته من الضعف والوضع وغيرهما .

والذي نميل إليه أن المقصود بشرف الحديث حديث الأدباء والعلماء وأقوالهم إذ الحديث النبوي شريف كله .

ويرى الأستاذ أن ذكر الحديث الشريف ووجوب تعليمه مع القرآن الكريم وعدم الإكتفاء بالشعر العفيف مذهب مغربي وأندلسي خاص .

٧. ويشترط ابن حبيب في المعلم أن يكون حكيماً في تصرفاته مع طلبته كالطبيب الذي (لايضع الدواء إلا في موضع الداء) .
٨. ويتطرق ابن حبيب إلى مشكلة هامة شغلت المربين منذ القديم وهي : عقوبة الطفل وقد كانت وما تزال موضع أخذ ورد فمنهم من أباحَ الضرب ومنهم من منعه ومنهم من توسط ، وابن حبيب من المتشددين في هذا الباب فهو لايُبيح لمعلم أبنائه أن يضربهم أو يُغيضهم (فهددهم بي ولا تضربهم دوني) .
٩. ومن القضايا الهامة التي التفت إليها عبدالملك أن يجعل المعلم تأديبه مدحاً وتشجيعاً لاذماً وتقريعاً . وهذا فيما نعتقد أصل من الأصول الخطيرة

في التربية وإن كان البعض يستهين بأثره غير مقدر لحقيقة أبعاده ونتائجه... يقول عبدالملك في ذلك : (وأجعل أدبك لهم مدحاً يزدادون رفقاً وشوقاً (، ويعلق ، اعراب على ذلك بقوله : « والمسألة تتصل بعلم النفس ، فمن كان مرباه — كما يقول ابن خلدون — بالعسف والقهر ، طابه القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث خوفاً من انبساط الأيدي إليه بالقهر وفسدت معاني الإنسانية التي له ثم يجعل الأستاذ الباحث ما تبقى من الرسالة متعلقاً بما يسميه :

اليوم الدراسي والأسبوع الدراسي :

ويُفهم من توجيهات عبدالملك في هذا الخصوص أن الأسبوع الدراسي في رأيه يبدأ صباح السبت وينتهي في عصر الخميس ولذلك يكون يوم الجمعة بطوله عطلة .

وهذا يفهم من قوله (وتطلقهم في النهار ثلاثة أوقات ....

١. من الصباح الباكر إلى وقت الضحى يدرس فيه الصبيان القرآن الكريم.
٢. عند الضحى استراحة لتناول الفطور .
٣. من الضحى إلى ماقبل الظهر للكتابة وتعليم الخط .
٤. وقبل الظهر ينصرف الصبيان إلى بيوتهم لتناول الغداء .
٥. بعد الظهر يدرسون بقية العلوم من شعر وحديث وما إلى ذلك .
٦. وعند الظهر استراحة خفيفة تختلف بحسب طول النهار وقصره ...(١)

وبعد أن ينتهي اعراب من عرض أهم النقاط التي وقف عليها في رسالة عبدالملك يعقب على ذلك بقوله :

(ولابن حبيب آراء تتصل بالتربية والتعليم جاءت متفرقة في بعض كتبه أورد طائفة منها القابسي في رسالته (٢)...) ومن طريف آرائه أنه أباح

(١) الثقافة المغربية ج٧ سنة ١٩٧٢ ص٥٩/٦٥ .

(٢) انظر علم التاريخ عند المسلمين والتعليم في رأي القابسي الدكتور أحمد فؤاد الاهواني ، ، ص ٢٧٤ وص ٢٧٦ وغيرها

الإستئجار على تعليم الشعر وأيام العرب وخالف أئمة الفقه في ذلك ..

ثم يختم بحثه بقوله :

(فنحن إذا نظرنا إلى ابن حبيب كأحد المربين في الإسلام ومن الرعيل الأول في الغرب الإسلامي ، نجد أنه صاحب رأي وصاحب رسالة ترفع اسمه في قائمة المربين ولا سيما إذا عرفنا أنه عاش في القرن الثالث الهجري أي في صميم القرون الوسطى التي يعدها المؤرخون من عصور الظلام والتأخر في حياة العالم) .(١)

عبدالملك المؤرخ :

ونود أن نلقي بعض الأضواء على جانب هام آخر من جوانب ثقافة هذا العالم الكبير في فترة خطيرة من فترات الأندلس كانت تحدث خلالها تحولات كبيرة في جميع نواحي الثقافة والمعرفة وألوان العلوم والفنون والآداب ومظاهر الحضارة .

هذا الجانب هو التاريخ حيث كان عبدالملك على مايبدو من المعينين الذين شغلت جهوده مكاناً بارزاً في الدراسات التاريخية في هذه الفترة المهمة من تاريخ المجتمع الإسلامي في الأندلس .

يحدثنا الزبيدي أن لعبدالملك عدداً كبيراً : (من دواوين الفقه والحديث والأخبار ((٢) ويحدثنا القاضي عن عبدالملك بن حبيب مؤكد على الجانب التاريخي في ثقافته فيقول : (أن له مؤلفات في الفقه والتواريخ والآداب كثيرة حسان).(٣)

أما ابن سعيد فإنه يشيد بثقافة عبدالملك وجهوده في ميدان التاريخ والمؤرخين وأنه كان : (نابه الذكر في تاريخ بن حيان والمسهب وغيرهما(٤) والمصادر

---

(١) مجلة الثقافة ج٧ سنة ١٩٧٢ ص ٦٥ .

(٢) طبقات النحويين واللغويين ص ٢٨٢ .

(٣) تاريخ علماء الاندلس ص ٢٦٩ .

(٤) المغيب في حلى المغرب ج٢ ص٩٦ .

الثلاثة المذكور أندلسية قريبة من عهد عبدالملك وتعد من الأسس والقواعد الرئيسة في مصادرنا الأندلسية ولعل أهم مافي أخبار هذه النصوص تأكيدها على إعتماد ابن حيان في مؤلفه التاريخي المشهور على عبدالملك وإذ كان ابن حيان من الشخصيات التاريخية البارزة المتسمة بالدقة والعمق والإستقصاء(١) فإن إعتماده على عبدالملك يلفت النظر إلى أهمية الأخير ومكانته في التاريخ والمؤرخين في عصره ... وإلى جانب هذا نرى مؤرخاً خر من مؤرخي الأندلس يعتمد إعتماداً بارزاً وهاماً على عبدالملك كقوله مثلاً وهو يروي عن عبدالملك :

« ... وقال عبدالملك بن حبيب ، عن الليث بن سعد أن إنساناً جاء إلى موسى لما وصل ناحية طليطلة فقال إبعث معي أدلك على كنز فبعث معه رجالاً ...»

« وقال عبدالملك بن حبيب ، لما ولي الأندلس السمح بن مالك الخولاني سنة ماية في الأندلس في خلافة أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه دخل الأندلس جيش من العرب » .

(قال عبدالملك بن حبيب يرفعه إلى نعيم التجيبي .....)(٢)

وهكذا لو إستعرضنا العديد من كتب التاريخ والتراجم الأندلسية لوجدناها تعتمد على عبدالملك بن حبيب ربما يشير بعضها إلى كتابه في التاريخ على أنه مصدر هام رئيس من مصادره عن فترة مهمة من فترات التاريخ الأندلسي .

وإذا عرفنا هذه المكانة التي يمثلها عبدالملك في كتب التاريخ الأندلسي وحتى المشرقي إلى حد مااستطعنا أن نتغاضى ولو قليلاً عن قضية ضياع كتب عبدالملك في التاريخ مادامت هناك نصوص تاريخيه تروى عن عبدالملك وتكوّن ركناً بارزاً في عدد من مصادر الأندلس على أن هناك أثراً

---

(٤) مقال محمد عبد الله عنان في مجلة العربي (المؤرخ ابن حيان وكتابه المقتبس) عدد ٨٨/ ١٩٦٦ .

(٥) تاريخ افتتاح الاندلس / الصفحات ٢٠١ /٢٠٧ /٢١٠ /٢١٤ على التوالي . وانظر كذلك الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ١٥٩ وصفحات أخرى .
وانظر كذلك علم التاريخ عند المسلمين الصفحات ١٠٠ /٥٢٧/٦٤٧/وغيرها .

تاريخياً باقياً هو (الكتاب المسمى بالتاريخ) (١) يرى بعضهم ن : « أول كتاب صنف في ألأندلس ، وبقي إلى الآن ينسب إلى أبي مروان عبدالملك ابن حبيب السلمي المرداسي الألبيري القرطبي» (٢) . هذا الكتاب مايزال مخطوطاً في المكتبة البودلية في أكسفورد وعنوانه كما يرد في هذه المخطوطة هو : « كتاب في إبتداء خلق آادم وحواء وما كان من شأنهما مع إبليس وعدة الأنبياء نبياً نبياً إلى محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين وعدة الكتب المنزلة وعدة الخلفاء إلى حين إستفتاح الأندلس وما وجد فيها من الذهب والفضة وألجوهر والياقوت والزمرد وألأمتعة وما أخرج منها وعدة ملوكها ومن يلها وذكر شيء من الحدثان وما يعلم منهما في بعض البلدان وكم عمر الدنيا وما مضى منها وما بقي إلى أن تقوم الساعة . تأليف : عبدالملك بن حبيب رضي الله عنه وفيه ذكر القضاة — قضاة قرطبة لابن الحارث» .(٣)

ثم يمضي الكاتب في وصف المخطوطة فيقول : « . . . ونجد في الورقة الأولى من هذه المخطوطة بيان بمحتوياته وفيها تبين أنه يبدأ بالكلام على: أولية خلق الدنية ويتحدث فيه عن أول مابدأ الله به خلقه في السموات والبحار والجبال والجنة والنار وآدم وحواء ثم ماجرى بينهما وبين إبليس ثم بعض سير الأنبياء حتى يصل إلى محمد صلى الله عليه وسلم ويتكلم عن الكتب المنزلية ثم يذكر سير الخلفاء حتى فتح الأندلس » . ثم يحدثنا عما يوجد بالأندلس من الذهب والفضة واللآلئ والياقوت والزمرد وما إلى ذلك من الخيرات وميون الثروة ...) . (٤)

هذا المخطوط التاريخي الذي قدم موجزاً لوصفه كما ورد في أحد مراجعنا الأندلسية هو الأثر الوحيد الذي نعرف أنه موجود مخطوط من كتب عبدالملك

---

(١) تاريخ الفكر الاندلسي / بالنثيا ص١٩٥ وتاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ص ٤٧٩
(٢) تاريخ الادب العربي / بروكلمان ج٣ ص ٨٦ .
(٣) تاريخ الفكر الاندلسي ص ١٩٥ .
(٤) المصدر نفسه ص ١٩٥ .

التاريخية ... يدل عنوانه على موضوعاته ، فهو يبدأ مع بدء الخليفة ثم يتدرج في تتبع الحوادث سائراً مع الزمن متعرضاً لأهم الأحداث التي تهم الناس منذ القديم . والكتاب بهذا يبدو ذا أهمية في التاريخ العربي العام والأندلسي بوجه خاص ولكن ذكره لأحداث وقعت بعد وفاة عبد الملك جعل بعض الباحثين يشك فيه جملة ويرى أنه ربما كان منسوباً اليه و ((أن ابن حبيب لم يكتب الكتاب أو لم يكتب الا جزء منه)) . (١)

واذا أضفنا إلى هذا ما لاحظه عدد من الباحثين الذين اطلعوا على المخطوطة المذكورة من وجود ((بعض الاساطير التي نسجت حول فتح المسلمين للاندلس)) (٢) استطعنا أن نفهم الدوافع التي دفعت البعض إلى التقليل من قيمة كتب عبد الملك عامة والقول بأن : ((تآليفه لم تظهر ترض أهل العلم المحققين وما وصل الينا منها يؤيد هذا الرأى)) (٣) . ونقول أنه اذا كان لهذا الرأى ما يبرره عند من يطلع على مخطوط عبد الملك التاريخي فان هذا لاينبغي أن ينسحب على مؤلفاته كلها بسبب مكانة الرجل العلمية وشهرته التاريخية واعتماد المصادر العديدة على ما أورده من أخبار وبخاصة ابن حيان كما أشرنا سابقاً . ويؤكد هذه المكانة الدارسون والمتخصصون بالتاريخ واللغة والحضارة في عصرنا الحديث فيصفه أحدهم بأنه : ((أول مؤرخ أصيل أنجبته الاندلس)) . (٤) ونجد هذا الباحث يقرن عبد الملك إلى أشهر المؤرخين المصريين فيقول : ((واذا كان من المتعارف عليه بين المؤرخين أن أول مؤرخ بمصر الاسلامية هو عبد الرحمن بن الحكم ، فان من المتعارف عليه بينهم كذلك أن أول مؤرخ للأندلس الاسلامية هو عبد الملك بن حبيب ...)) . (٥)

---

(١) تاريخ الفكر الاندلسي ص ١٩٥ .
(٢) الادب الاندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ص ١٢٦/ ١٢٧ .
(٣) شيوخ العصر في الاندلس ص ٣٤ وانظر كذلك دائرة المعارف الاسلامية جـ١ ص ١٢٩ ؛
(٤) أثر العرب والاسلام في الحضارة الاوربية ص ٨٧ والادب الاندلسي من الفتح إلى سقوط الحضارة ص ١٢٦ /١٢٧ .
(٥) المصدر نفسه ص ٣٧١ .

لقد كان عبد الملك عالماً في شتى فروع المعرفة وكان كما وصفه كثيرون ((متصرفاً في أضرب العلوم المختلفة في الاخبار والانساب والاشعار وكانت له مؤلفات جيدة في الأدب إلى جانب تآليفه الكثيرة في التواريخ والفقه ...)) (٦)

وقد يطول بنا الحديث اذا ذهبنا نستقصي آراء الباحثين في علمه وثقافته قديماً وحديثاً ولعل ما أوردناه من بعض نصوصهم يكفي في اعطاء صورة واضحة عن مكانة ال جل في الاوساط العلمية الثقافية والتاريخية ... ولا نرى بعد هذا تضعيف ال جل والتقليل من شأنه بعد الذي رأينا من الاشادة بمكانته وفضله من قبل المتخصصين والعارفين بالدراسات التاريخية والادبية وغيرها ومعهم عدد آخر من الباحثين يرون رأيهم في توثيق عبد الملك واعتباره رأساً في علم التاريخ وباقي ألوان الثقافة الأخرى .

حازم عبدالله خضر
استاذ مساعد/قسم اللغة العربية

---

(٦) فصول في الادب الاندلسي ص ٦٠ .

— المصادر —

١. الاتابكي : جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردى٨١٣ ،٨٧٤.النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر .

٢. ابن حيان : أبو مروان
المقتبس من أبناء أهل الأندلس ، حققه وقدم له وعلق عليه د. محمود علي مكي : دار الكتاب العربي بيروت ١٩٧٣ .

٣. ابن خاقان : أبو نصر الفتح بن محمد بن عبدالله بن خاقان القيسي المتوفى سنة ٣٣٥ ، أو ٥٢٩ .
مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس ، طبعة مطبعة السعادة .

٤. ابن دحية :
المطرب في أشعار أهل الغرب .

٥. ابن عبد ربه : أبو عمر أحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي .
كتاب العقد الفريد ، ت . أحمد أمين وأحمد الزين وابراهيم الإيباري ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٥ .

٦. ابن سعيد : عبدالملك
المغرب في حلى المغرب ، تحقيق وتعليق د. شوقي ضيف ط. دار المعارف بمصر ، ١٩٦٤ .

٧. ابن الفرضي : أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف الأزدي الحافظ المتوفى سنة ٤٠٣هـ .تاريخ علماء الأندلس ، نشر :

الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ .

٨. ابن قتيبة أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، ٢١٣—٢٧٦ .
عيون الأخبار ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر نسخة مصورة من طبعة دار الكتب ، ١٩٦٣

٩. ابن القوطية : أبو بكر
تاريخ آفتتاح الأندلس حققه وشرحه عبدالله أنيس الطباع دار النشر للجامعيين .

١٠. البكري الوزير الفقيه أبو عبيد الله عبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي ، المتوفى سنة ٤٨٧ .
معجم ماآستعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق وضبط مصطفى السقا .طبعة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٩٤٧ .

١١. الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .
البيان والتبيين ، ت.عبدالسلام محمد هارون ، ج ١ ، ط.٣ ، سنة ١٣٨٨هـ — ١٩٦٨م الناشر : مكتبة الخانجي —القاهرة ومكتبة الهلال بيروت ، المكتب العربي بالكويت .

١٢. الحموي : الشيخ الإمام شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي .
معجم البلدان ، طبعة دار صادر بيروت ١٣٧٤ ١٩٥٥.

١٣. الحميدي : أبو عبدالله محمد بن فتوح بن عبدالله الحميدي المتوفى سنة ٤٨٨ .
جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، مكتبة الثقافة الإسلامية .

١٤. الحنبلي : المؤرخ الفقيه الأديب ابو الفلاح عبد الحي بن ألعماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩ .
شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت ــ لبنان

١٥. خليفة : العالم ألفاضل والأديب والمؤرخ ألكامل الاديب مصطفى بن عبدالله الشهير بحاجي خليفة .
كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، منشورات المكتبة الإسلامية ــطهران .

١٦. الذهبي : أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ .تذكرة الحفاظ

١٧. الذهبي : أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ .
العبر في خبر من غبر .

١٨. الذهبي : أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ .
ميزان الإعتدال في نقد الرجال دار إحياء الكتب العربية الطبعة الأولى ، ١٩٦٣ .

١٩. الزبيدي : أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي المتوفى سنة ٣٧٩.
طبقات النحويين واللغويين ، ت. محمد أبي ألفضل ابراهيم الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤ أمين الخانجي بمصر .

٢٠. السخاوي : الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي المتوفى سنة ٩١٢ .
الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، مكتبة المثنى ــ بغداد.

٢١. السيوطي : العلاّمة الحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي الشافعي.
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة الطبعة الأولى ،

مطبعة دار السعادة بمصر .

٢٢. السيوطي : العلامة الحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي ٨٤٩/٩١١ .
طبقات الحفاظ ،ت . علي محمد عمر . نشر مكتبة وهبة. الطبعة الأولى ١٩٧٣ .

٢٣. الشيرازي : أبو اسحق الشيرازي الشافعي ، ٣٩٣/٤٧٦ .
طبقات الفقهاء محققة وقدم له د. إحسان عباس ، دار الرائد بيروت ، ١٩٧٠ .

٢٤. الأصبهاني : الميرزا محمد باقر الموسوي الخوانساري الأصبهاني .
روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات الطبعة الثانية ١٣٤٧هـ .

٢٥. الضبي : أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي ، المتوفى سنة ٥٩٩ .
بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، طبع في مدينة مجريط ،بمطبعة روخس سنة ١٨٨٢ .

٢٦. العسقلاني : الإمام الحافظ شيخ الإسلام شهاب الدين بن أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني .
تهذيب التهذيب نسخة مصورة عن الطبعة الأولى حيدر آباد ١٣٢٦ دار صادر بيروت .

٢٧. العسقلاني : الإمام الحافظ شيخ الإسلام شهاب الدين بن أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني .
النظامية الكائنة في الهند بمحروسة حيدرآباد الدكن عمرها الله إلى أقصى زمن سنة ١٣٣٠هـ .

٢٨. الفيروزآبادي :مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي .
القاموس المحيط ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر .

٢٩. القفطي : الوزير جمال الدين أبوا المحاسن علي بن يوسف القفطي.
إنباه الرواة على أنباه النحاة . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .

٣٠. المراكشي ابن عذاري
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب . تحقيق ومراجعة: ج . س . كولان . ليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت — لبنان الطبعة الأولى ، كتب التعليقات د . احسان عباس ، ١٩٦٧ .

٣١. المقري :الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني .
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ،الطبعة الأولى ١٣٦٧ ١٩٤٩ .

٣٢. اليافعي :الشيخ الإمام أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان عفيف الدين اليافعي اليمني المكي المتوفي سنة ٧٦٨هـ .
مرآة الجنان وعزة اليقظان ، مطبعة دائرة المعارف النظامية الكائنة بمدينة حيدر آباد سنة ١٣٨٨ هـ .

٣٣. اليحصبي :القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي المتوفي سنة ٥٤٤ .
ترتيب المدارك وتقريب المسالك ، ت . د . أحمد بكير محمود ، دار صادر بيروت.

٣٤. اليعمري :الإمام الجليل العلامة قاضي القضاة برهان الدين ابراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المدني المكي .
الديباج المذهب في أعيان المذهب ، الطبعة الأولى سنة ١٣٥١

المراجع

١. أرسلان : الأمير شكيب .
الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، منشورات مكتبة الحياة .

٢. أمين : الأستاذ أحمد أمين .
ظهر الإسلام ، دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الخامسة ١٩٦٩ .

٣. الأوسي : د . حكمت الأوسي .
فصول في الأدب الأندلس ، مكتبة النهضة بغداد ، الطبعة الثانية ١٩٧٤ .

٤. بالنثيا : آنخل جنثالث بالنثيا .
تاريخ الفكر الأندلسي ترجمة حسين مؤنس ، الطبعة الأولى سنة ١٩٥٥ ، مكتبة النهضة المصرية .

٥. بروكلمن : كارل بروكلمن .
تاريخ الأدب العربي ترجمة د . عبدالحليم النجار ، طبعة دار المعارف بمصر .

٦. حميد : دكتور بدير متولي حميد .
قضاياً أندلسية ، نشر دار المعرفة بالقاهرة الطبعة سنة ١٩٦٤

٧. الزركلي : خيرالدين الزركلي .
الاعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء والعرب والمستعربين والمستشرقين .

٨. روزنثال : فرانز روزنثال .
علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة د . صالح أحمد العلي ومراجعة محمد توفيق حسين ، نشر مكتبة المثنى سنة ١٩٦٣.

٩. عجاج : محمد عجاج وعلي سعد .
المطرب في أدب الأندلس والمغرب ، الطبعة الأولى ١٩٣٢ ١٩٣٣ .

١٠. عنـــان :محمد عبدالله عنان .
دولة الإسلام في الأندلس (من الفتح إلى بداية عهد الناصر ــ العصر الأول ــ القسم الأول ، الطبعة الثالثة نشر مؤسسة الخانجي ١٩٦٠ .
١١. فـــروخ :الدكتور عمر فروخ .
تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ــ المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦٢.
١٢. كحالة :الدكتور رفعت رضا كحالة .
معجم المؤلفين ــ تراجم مصنفي الكتب العربية ــ مطبعة الترقي ١٣٧٧ ١٩٥٨ .
١٣. مؤنس :د حسين مؤنس .
شيوخ العصر في الأندلس ــ الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٥ .
١٤. مركز :باشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة يونسكو . طبع الهيئة العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠ .
١٥. مطلـــق :البير حبيب مطلق .
الحركة اللغوية في الأندلس ، المطبعة العصرية صيدا ،
١٦. هيكـــل :دكتور أحمد عبدالمقصود هيكل .
الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة الثالثة ١٩٦٧ .
١. دائرة المعارف الإسلامية :
المجـــلات :
٢. مجلة الثقافة المغربية ، تصدرها وزارة الثقافة والتعليم الأصلي والعالي و ، ج ٧ ، سنة ١٩٧٢ ،

مقال سعيد اعراب ، رسالة ابن
إلى معلم ولده .

٣. مجلة الرسالة الإسلامية ، شهرية يصدرها ديوان الأوقاف في
عدد شباط وآذار ، ١٩٧١ .

٤. مجلة العربي الكويتية العدد ٨٨ سنة ١٩٦٦ .
مقال الأستاذ محمد عبدالله عنان بعنوان
ابن حيان وكتابه المقتبس) .